آثار محمد علي في مصر

الكاتب: محمد رشيد رضا

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وما له من الآثار في مصر وأهلها، وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك، والله أعلم ماذا بعث المادح على الإطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء، غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي، وما كانت تصير البلاد إليه لو بقيت.

وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي. أذكر الآن شيئًا في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع. كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين "حكومات الأشراف"، وتسمى في عرف المصريين "حكومات الالتزام"، وتعرف عند الخاصة بـ"حكومات الإقطاع"، وأساس هذا النوع من الحكومة تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء، يملك كل أمير منهم قسمًا يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد، فهو حاكمهم السياسي والإداري والقضائي، وسيدهم المالك لرقابهم.

ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة، وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه، وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما في يد جاره من الأمراء. فكان من مقتضى الطبيعة أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم به شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وأن يكون الجميع دائمًا في استعداد، إما للوثوب وإما للدفاع.

ولكن الأمراء في مجموعتهم كانوا يقاومون سلطة الملوك، فيضطر الملك لاستمالتهم ومجابهة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم. حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم. ظهر ذلك في خصوماتهم مرة بعد مرة، فاضطر الأمراء إلى أن يخففوا من ظلمهم، وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارًا يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم.

أحسَّ الأهلون بحاجة الأمراء إليهم، فزادوا في الدالة على الأمراء، واضطروهم إلى قبول مطالبهم، فعظمت قوة الإرادة عند أولئك الذين كانوا عبيدًا بمقتضى الحكومة، وانتهى بهم الأمر إلى أن قيدوا الأمراء والملوك معًا، ولم يكن ذلك في يوم أو عام، ولكنه في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة.

نعم، كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية، وكانت البلاد متوزعة بين عدة أمراء، كل منهم يستغل قسمًا منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته، فالخصام كان دأبهم، والحرب كانت أهم عملهم. لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده، ولكن كانت تعوزه مؤنتهم إذا كثروا، فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد، فوجدوا من العرب أحزابًا كما وجدوا منهم خصومًا.

ثم رجعوا إلى سكان القرى، فوجدوا فيهم ما يحتاجون إليه، فاتخذوا بيوتًا منها أنصارًا لهم عند الحاجة، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء إليهم، فارتفعوا في أعينهم، وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك. لهذا كنت ترى في البلاد بيوتًا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم.

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير، واستجلاب النصير، وإعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده والتمكن من إخضاع غيره. أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفًا من تعدي أعوان خصمه عليهم، فوقعت القسمة بين الأهالي، ولا تزال أسماء الأقسام معروفة إلى اليوم: "سعد" و"حرام"، هذا يحدث بطبعه في النفوس شممًا، وفي العزائم قوة، ويكتسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احترقت نوعها. فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كيانه ويعرف العالم بمكانته.

جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها، احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها. لم تكن أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق، وعظمت حوله القلاقل، ولم تنقطع الحروب والمناوشات، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال. يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل، واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعًا لحكم الطبيعة التي وجدها.

قتل بعض رؤساء الجيش، واضطربت عليه البلاد، وجاء الجيش العثماني، وعاونه الجيش الإنجليزي، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر، ولا أطيل الكلام، فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر.

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده.

ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يحيي، ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية، وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا).

اتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا، حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها، فلم يُبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم، حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.